"قصيدة الأرض" في شعر محمود درويش
(دراسة دلالية)

سارة حسين السراحنة

تاريخ الاستلام 2015/4/29 تاريخ الاعتماد 2015/8/2م

ملخص:

تعد "قصيدة الأرض" لمحمود درويش من القصائد المحورية التي تتواصل معها قضية الشاعر وشعبه وقضية انتفاضة الشعب في يوم الأرض؛ لإحياء مشكلة أمام الدنيا؛ لكي لا تنسى، فهي قضية حية متفجرة، وستظل كذلك؛ حتى تتحرر الأرض، ويعود الحق إلى أهله، وترجع فلسطين حرة أبية بإذن الله تعالى.

فقد قرأت الباحثة هذه القصيدة قراءة عبر الحقول الدلالية من خلال الألفاظ الدالة على الأرض ومترادفاتها والألفاظ الدالة على الأمكنة، ومن ثم الألفاظ الدالة على الأزمنة، وقد استنتجت الباحثة أن الأرض من أكثر المفردات تكراراً وأهمية، فهي موضوعها الرئيس أولاً ومحور القصيدة ثانياً.

وقد اعتمدت الباحثة المنهج الأسلوبي؛ مما يتناسب مع موضوع الأرض والقضية، علماً أن الباحثة استفادت من المنهج الوصفي التحليلي استفادة تتماشى مع المنهج الأسلوبي، وكذلك المنهج الإحصائي لتحديد أنواع الدلالة ، وتخدم الدراسة في الوقت نفسه.

Abstract:

"The land poem" is considered as one of Mohmmad Darwish's poems with the issue of the poet and his people and the uprising of the people contact, This is on land day for the sake of revival of a problem in full view of the world in order not to be forgotten, It is a live explosive issue and it will remain so until the land is free and liberated, people return their rights and Palestine returns free and proud by god willing.

The researcher reads this poem through inductive reading, She hopes to present a modest service and usefulness. The reading was by using a table format upon which the table was a word review function based on the land and it's synonyms. As well as vocabularies that indicates the places and the times.

The researcher concluded that the land is one of the most frequent and important vocabularies first, it is the main theme. Second, it is the focus of the poem.

The researcher depended on Social Approach so as to suit the subject of the land and the issue. Please note that she benefited from the Descriptive Analytical Approach in line with the Social Approach. Moreover, it served the research.

مقدمة:

الحمد لله الذي يسر لنا دروب العلم، وسيَرنا فيها آمنين مطمئنين، الحمد لله مثبت الأقدام، ومزيل الغم والأوهام، وداعي الأنام وبعد،

إن المتصفح لفهارس المكتبات العربية يلاحظ نقص الدراسات التي تناولت الأدب العربي في فلسطين، خاصة الشعر الفلسطيني المعاصر، لذا أصبح من الضروري الاهتمام بدراسة هذا الشعر وتسليط الضوء على هؤلاء الشعراء خاصة إذا تعلق الأمر بشاعر كمحمود درويش.

فقد وجدت في دراسة شعره خير معين لي لأتبين دلالة الألفاظ ورموزها في القصيدة وهي الألفاظ الدالة على الأرض (المكان والزمان) كي أخرج بنتيجة عن قضية الأرض عن طريق دلالة الألفاظ وعلاقتها.

فلما كانت قصيدة الأرض وما تحتوي عليه من رموز ودلالات عند محمود درويش، فقد وقع اختياري عليه ، وقد اخترت هذا الموضوع لارتباطه بقضيتي من ناحية، ولتصويره مرحلة حاسمة من مراحل القضية الفلسطينية من ناحية أخرى، ولعل أهمية الدراسة تكمن في إبراز دور الشاعر الفلسطيني محمود درويش في تفعيل النضال وتسيير حركته، وتوثيق أحداثه، بدلالات مختلفة ورموز معبرة.

كما أن الدلالة تعد من أهم فروع علم اللغة الحديث ، وذلك لأنها تبحث عن المعنى الذي هو غاية كل الفروع ، حيث أن هدفها الأساس هو تبيين المعنى وإظهاره على نسق واضح سهل الفهم ، ومن هنا وُسِمَ عنوان البحث بقصيدة الأرض في شعر محمود درويش دراسة دلالية.

ويهدف هذا البحث إلى تبيين مدى مساهمة لغة الشاعر الخاصة وأسلوبه المتميز في تحقيق الدلالة .

وقد اخترت المنهج الأسلوبي غير أني لم أتخلص من المنهج الوصفي التحليلي في بعض المواضع في تحليل القصيدة، وكذلك المنهج الإحصائي لدوره في تحديد أنواع الدلالة، ولقد قمت وفقاً لذلك بربط الشعر بالمجتمع ووقفت عند بعض الظواهر مفسرة ومحللة، من وجهة نظر وطنية تعتمد على تفاصيل القضية وما احتوته من تهجير وتشريد ونهب واحتلال للوطن.

أما بالنسبة للدراسة فقد اشتملت على مدخل ومبحثين، حوى التمهيد حياة الشاعر محمود درويش وأعماله الشعرية، وارتباطه بالأرض عامة وبقصيدة الأرض خاصة .

وفي المبحث الأول: رصدت فيه الألفاظ الدالة على الأرض " التراب، بلادي" والألفاظ الدالة على الأمكنة، والألفاظ الدالة على الأزمنة مع التعليق والشرح حول الألفاظ التي وردت بكثرة في كل منها.

والمبحث الثاني: تناولت فيه العلاقات الدلالية الرئيسة الهامة وهي ثلاث: الترادف، والمشترك اللفظي، والتضاد.

وقد اعتمدت في هذا البحث على كتب أهمها ديوان محمود درويش، ومجنون التراب " لشاكر النابلسي " وكتاب سلمى الجيوسي " موسوعة الأدب الفلسطيني، وكتاب أحمد الزعبي الشاعر الغاضب محمود درويش.

واعتمدت على بعض الدراسات التي أفادتني في المقدمة والبحث مثل دراسة علي عودة ثنائية الأرض والمرأة عند محمود درويش ،ودراسة اعتدال عثمان نحو قراءة نقدية لأرض محمود درويش، ومقال لمحمود درويش في الستين لأحمد دحبور ، الشاعر والشأن العظيم، ودراسة إيمان جربوعة : قصيدة مديح الظل العالي دراسة دلالية

وختمت البحث بخاتمة لخصت فيها ما توصلت إليه من نتائج

مدخـــل:

أولاً:- حياة محمود درويش:

ولد محمود درويش في 13 آذار (1941م) ، في قرية صغيرة شرقي عكا، تدعى "البروة" وهي من بين المدن التي سواها الإسرائيليون بالأرض بعد حرب عام (1948) ، ووالده سليم درويش فلاح فلسطيني، ووالدته حورية بنت أديب البقاعي(1).

نشأ محمود درويش نشأة ريفية فهو فلاح ابن فلاح ومن عائلة ارتبطت بالأرض بالدرجة الأولى.

وعن طفولته يقول: أذكر نفسي عندما كان عمري ست سنوات، كنت أقيم في قرية جميلة وهادئة، هي قرية البروة... وكنت ابنا لأسرة متوسطة الحال عاشت من الزراعة.

أما بالنسبة لعائلته " أسرته الصغيرة " فإنها عاشت في البروة ثم انتقلت إلى الجديدة ليعمل فيها محمود درويش مدرساً فيما بعد(2).

عاش درويش لاجئاً في وطنه، وشارك في الكفاح السياسي في مطلع شبابه، وبسبب معتقداته السياسية تعرض للمضايقة والقمع المتواصل على أيدي السلطات الإسرائيلية، وقد سجن وحكم عليه بالإقامة الجبرية في منزله، خلال وجوده في فلسطين عاش في منطقة الجليل، وعمل لبعض الوقت محرراً في صحيفة الاتحاد، وفي عام (1971)، غادر محمود درويش فلسطين وأقام في بيروت حيث نال شهرة واسعة بوصفه شاعر المقاومة، لحنت العديد من قصائده وغنيت بوصفها تعبيراً رمزياً عن الكفاح الفلسطيني، وقد تطور شعر درويش وأصبح بمرور الوقت أكثر عمقاً، كما نال شهرة واسعة واعترافاً عاماً بوصفه واحداً من أعظم الشعراء العرب الذين وصلوا إلى المستوى العالمي وأصبح نتاجه جزءا من الثقافة الشعرية العالمية وقد حمل قضية شعبه عبر الإبداع المتجدد والتحليق في عالم واسع ممتد الأفق ليجعل من التجربة الفلسطينية في النصف الثاني من القرن العشرين تجربة الإنسان المعذب المضطهد الذي يرفض أن يرضخ لمصيره بل يناضل باسلاً معانداً رغم جراحه النازفة، وهي تجربة تقع في الصميم من التجربة الحداثية في الأدب العالمي، ومن يقرأ لمحمود درويش يلاحظ شغفه وتعلقه بفترة طفولته ويظهر ذلك من خلال تأثير تلك المرحلة في ثقافته وشعره على أن ذلك لا يعني أن الشاعر عاش طفولة سعيدة (3)،

أصدر درويش ست عشرة مجموعة شعرية منها:

"أوراق الزيتون" (1964)، "عاشق من فلسطين" (1966)، "آخر الليل" (1967)، "حبيبتي تنهض من نومها" (1970)، "العصافير تموت في الجليل" (1970)، "أحبك أو لا أحبك" (1972)، "محاولة رقم 7" (1974)، "تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق" (1975)، "أعراس" (1976)، "مديح الظل العالي" (1983)."حصار لمدائح البحر" (1984) ، "هي أغنية هي أغنية" (1986) ، "مأساة النرجس وملهاة الفضة" (1989)، " أرى ما أريد " (1990) ،" أحد عشر كوكبا" (1992) ،" لماذا تركت الحصان وحيداً " (1995) (4).

ثانياً :- الأرض في شعر محمود درويش:

تشكل الأرض في حياة الفلسطيني بعداً وجدانياً، مرتبطاً بكينونته ومصيره، فهي مرتجع أحلامه النائي، وهي بطاقة عبوره إلى الحياة، ومهد الثبات بمنطق التحدي، وعنوان الانتماء والمقاومة في وجه العجرفة والغطرسة التي تغلغل أنيابها الفولاذية في ذلك الجسد، كانت الأرض ولا تزال تجربة المعاناة لكل فلسطيني تشحذ مشاعره بإحساس وطني، فهي المهجر والموطن، والموطن والمهجر في زمن التيه والشتات، هكذا ولدت مشكلة الأرض لتلد آلاف المشكلات، غير أنها أصرت على أن تنمي في أحشائها آلاف المنافحين المتفاوتين في وسائل انتمائهم ودرجة إحساسهم وكان من بينهم الشعراء الذين يملكون الحس المرهف، والقلم الطاعن، ولم يكن "محمود درويش" سوى نموذج حي بث بصدق ما في نفسه من لواعج عن تجارب لم يفتعلها، ولم يعشها بالخيال بل عاشها في أرض الواقع.

وأدب كل أمة من الأمم صورة منتزعة من واقعها، معبراً عن حياتها سلباً وإيجاباً، ويستلهم الأدباء تجاربهم الأدبية من الأحداث وما قد تخلفه من انطباعات وأفكار في النفس، بما يجعلها تمثيلاً صادقاً لكينونة الأمة وذاتها (5).

ولنحاول أن نتعرف بصورة أدق على شاعرية محمود درويش من خلال قصيدة الأرض التي قدمها في ديوان أعراسي.

إن أجمل وأعذب ما في عالم هذا الشاعر هو" رؤيته للإنسانية الخاصة التي تنعكس على بناء قصائده، فمحمود درويش يرى الناس والأشياء بطريقة تختلط فيها كل العناصر" (6).

ففي القصيدة جاء محمود درويش بمفهوم جديد للتحدي كما جاء بمفاهيم جديدة للغة الشعرية، وللحداثة وللمقاومة والالتزام بالإضافة إلى تعميقه لمفهوم الزمان والمكان، وأخيراً بلورته لمفهوم الحب وارتباطه بالتراب وجنونه.

لقد ربط محمود درويش مفهوم التحدي في هذه القصيدة بمفهومه للأرض، للتراب فأصبح الوطن بالنسبة له ليس جغرافياً فحسب بل حالة ذهنية، فكرة يتوسل الشاعر لإحيائها وبث الحياة فيها بكل ما يمكن أن يعينه على إعادة بنائها وتثبيتها في الذاكرة (7).

وقد جاءت فكرة ربط التحدي بالأرض من خلال مشروع درويش بأن يحيل كل رمز من الرموز الفلسطينية إلى رموز تحد، فليس الإنسان الذي يقوم بفعل التحدي ، ولكنها الأرض والأشجار والطيور أيضاً.

لقد سعى محمود درويش في هذه القصيدة إلى توحيد الأجزاء كل الأجزاء... رداً على تجزئة النضال الفلسطيني، ورداً على تجزئة النضال العربي، ورداً على هذا العالم العربي المنهار، تحت سياط التجزئة.

فالتحدي في هذه القصيدة ليس ضد مغتصب الأرض ولكنه ضد سياط التجزئة التي تعتبر مظهراً من مظاهر الاغتصاب الوطني القومي.

فلو عدنا إلى أعمال محمود درويش نجده يقول شيئاً واحداً، بسيطاً عميقاً ومعجزاً يقول "أنا لا أكون إلا في الأرض"، وكل وجود لي خارجها إنما هو ضياع وتيه نهائي، لتكن الأرض داخلي تكتبني وأكتبها" (8).

أولاً: التعريف بالقصيدة ومناسبتها وعدد أبياتها:-

تتشكل قصيدة الأرض من خمسة مقاطع تأخذ أرقاماً هندية، ومقاطع مساوية لها في العدد تأخذ أرقاماً عربية، ويلي كل مقطع من المقاطع ذات الأرقام الهندية مقطع يحمل رقماً عربياً مماثلاً للمقطع السابق عليه، ومقطع سادس أخير يحمل رقماً مزدوجاً، هندياً وعربياً في الوقت نفسه، بحساب درويش تتكون القصيدة من اثنى عشر مقطعاً تمثل عدد شهور السنة، ولهذا الرقم دلالته، في تخلق القصيدة الأرض على مدار عام شعري لا يقاس بمقاييس زمننا الفعلي.

والقصيدة "العرس" عند درويش تأخذ بعداً مجازياً رامزاً ذات دلالات عميقة متنوعة، ويحسن بنا أن نشير إلى أن" أعراس" درويش هي أعراس دموية في وجه من وجوهها، ولكنها" أعراس" احتفالية تحررية في وجوهها الأخرى، فأعراس الشهداء وأعراس الأرض لم تتم إلا ببذل الدماء والأرواح، وهذه الدماء هي "مهر" العرس الذي يقدمه الإنسان المقاوم فوق أرضه ليكتمل فرحه ويروي أرضه ويبعث الحياة والخصوبة فيها (9).

و"قصيدة الأرض" هي إحدى هذه الأعراس التي يقيم الشاعر احتفالاته الكبيرة بمناسبة "زواجها" وانتفاضتها وانبعاث الحياة فيها، عندما اشتعلت في "يوم الأرض" وعرس الأرض عند درويش مرتبط بدلالات أسطورية متعلقة بعودة الحياة إلى الأرض بعد موتها، وانبعاث الخصب من الدم المسفوح على ترابها كما تجسده أساطير أدونيس وعشتار وتموز وغيرها، وهي دلالات ورموز يوظفها درويش لتجسد حالتي الموت والحياة وتعاقبهما وتداخلهما فوق أرضه المحتلة، منتصراً في آخر الأمر للحياة بعد الموت وللربيع بعد الخريف وللتحرير بعد الاحتلال.

والقصيدة تشتمل على مستويات عدة :-

تظهر في أوضح صورها في الجمع بين النثري والسردي من ناحية، والغنائي من ناحية أخرى، فالمقاطع ذات الأرقام الهندية تتميز بطبيعتها النثرية والسردية، وتشتمل على خصائص السرد متمثلة في الاعتماد على نمو الحدث المروي وتطوره كيفياً في المدى الزمني.

أما المقاطع ذات الأرقام العربية فتظهر فيها غنائية درويش، وحسه الموسيقي العالي، ويبرز الإيقاع بصورة واضحة في تكرار كلمات وحروف بعينها، وفي الاحتفاظ بجرس القافية الموحدة في عدد من السطور القصيرة المتتالية، التي تحمل دلالات تقريرية مباشرة.

ثانياً: توطئة حول الحقول الدلالية:

هي مجموعة الكلمات التي ترتبط دلالتها وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها ومثال ذلك كلمة الألوان في اللغة العربية ، فهي تحت المصطلح العام " لون" ، وتضم ألفاظا مثل أحمر ، أخضر ، ... .

فالدلالة هي أساس اللغة وقوامها ووظيفتها ، ولذلك ازدهرت البحوث الدلالية عند العلماء العرب ، فتناولوا عدة بحوث تدخل في مجالها ، وذلك مثل البحث في الحقيقة والمجاز ودلالة اللفظ على عدة معانٍ ، وكذلك دلالة عدة معانٍ على معنى واحد ، كما تناول علماء العرب الكثير من العلاقات الدلالية وذلك مثل علاقة الترادف والاشتراك اللفظي والعموم والخصوص وغير ذلك من بحوث علم الدلالة (10).

المبحث الأول

أولاً: الألفاظ الدالة على الأرض ومترادفاتها من (تراب، بلاد، وطن)

جدول بالألفاظ الدالة على الأرض ومترادفاتها (التراب، البلاد، الوطن) والألفاظ الدالة على الأمكنة (المدن، القرى، والظواهر الطبيعية) والألفاظ الدالة على الأزمنة في قصيدة الأرض.

المقاطع	الألفاظ الدالة على الأرض	الألفاظ الدالة على الأمكنة	الألفاظ الدالة على الأزمنة
١	الأرض ت= ٥ التراب	مدرسة، الطريق، الجليل	شهر آذار ت= ٤ سنة الانتفاضة
1	التراب	–	–
٢	الأرض ت= ٣	البحر، سجن ت= ٢، قرية، النهر، أنهارها	ثلاثين عاماً، خمس حروب
2	بلادي ت = ٢	سجني	–
٣	الأرض ت = ٦	القدس، القمم، اللولبية، حيفا، البحر	شهر آذار ت= ٥
3	–	الجليل – الخريطة	ما معنى
٤	الأرض ت=٢ التراب ت =٢	الخليل، الجليل، القدس، مدرسة	شهر آذار ت=٤ سنة الانتفاضة
4	–	الخريطة	–
٥	الأرض وطن الأنبياء، وطن المزارعين، وطن الشهداء، وطن الضائعين	قرية، العلال، أريحا، خصاب، الجبال، شاطئ البحر عكا ت=٢	ثلاثين عاماً شهر آذار ت =٢
5	–	التلال، قرية، سجنه	خمس حروب ثلاثين عاماً شهر آذار
٦،6	الأرض ت =١١ خديجة بمعنى الأرض ٦ التراب ت =٢	الجليل ت =٢ يافا، جبل النار سجني، صخرة القدس	شهر آذار الشتاء

عند استعراض الألفاظ الدالة على الأرض نجد أن الأرض من أكثر المفردات تكراراً وأهمية في القصيدة ، فهي موضوعها الرئيس أولاً وقضية الشاعر وشعبه ثانياً ومحور القصيدة ثالثاً.

لو دققنا النظر في المقاطع التي احتوت على كلمة الأرض لوجدنا أن مفردة الأرض وردت بلفظها ثماني وعشرين مرة في القصيدة، وتكررت بكثرة في المقطع السادس فقد تكررت إحدى عشرة مرة، وهذا يدل على أهمية الأرض وقيمتها عند درويش.

ولو دققنا النظر في الجدول للاحظنا أن الأرض لم يرد ذكرها "حرفيا" أبدا في المقاطع الستة ذات الأرقام العربية،1،2،3،4،5 عدا المقطع الأخير الذي دمج فيه الرقم العربي بالرقم الهندي (٦،6)، وإنما وردت لفظا أو ترادفا أو مجازا أكثر من ثماني وخمسين مرة.

ولعل السبب في غياب الأرض عن هذه المقاطع هو الإلمام بهذه الدلالات وتحديد علاقاتها ومرجعياتها ورموزها، وانفتاحها على عوالم لغوية وإنسانية وطبيعية يصعب تحديدها.

ونستدل على تعلق درويش بالأرض بقوله:

أنا لا أكون إلا في الأرض
وكل وجود لي خارجها إنما هو ضياع وتيه نهائي
لتكن الأرض داخلي تكتبني وأكتبها

إن درويش يسكن القصيدة ويشيد منها وطناً من الشعر، وفي المقطع الآتي دلالة:

أنا الأرض
والأرض أنت
أسمي التراب امتداداً لروحي
.. أسمي ضلوعي شجر
.. ولدت على كومة من حشيش القبور المضيء
وامتدادي على العشب
وفي شهر آذار نمتد في الأرض
وفي شهر آذار تنتشر الأرض فينا
إليك
.. أرجوك – سيدتي الأرض– أن تسكنيني وأن تسكنيني صهيلك
.. أرجوك – سيدتي الأرض– أن تدفنيني مع الفتيات الصغيرات
البنفسج والبندقية
أنا زهرة المشمش العائلية
هذا عناقي الزراعي في ذروة الحب
.. أنا الأمل السهل والرحب
أنا العاشق الأبدي السجين البديهي
أنا الأرض منذ عرفت خديجة
.. يا أيها الذاهبون إلى حبة القمح في مهدها
احرثوا جسدي
أيها العابرون على جسدي
لن تمروا
أنا الأرض في جسد
لن تمروا

أنا الأرض في صحوها
لن تمروا
أنا الأرض ...
لن تمروا ...

نجد في هذا المقطع رغبة من الشاعر في التوحد مع الأرض، وحالة التوحد بالأرض قد تصل إلى مرحلة العشق الصوفي الذي تفنى فيه.وتوحد الإنسان بالأرض في القصيدة هو نوع من التوحد بين العالم الخارجي والعالم الداخلي أو "توحد الذات والموضوع" كما يقول عز الدين إسماعيل (11).

إن صور توحد الشاعر بالأرض/ الوطن في هذه الأبيات كثيرة متنوعة، كما أن دلالاتها وعلاقاتها مرتبطة بفكرة وحدة الأرض والإنسان بحيث يصبح الإنسان في عالم القصيدة وحالة الشاعر هو الأرض ، والأرض هي الإنسان، كما يردد ويكرر الشاعر "أنا الأرض في جسد" وقد لاحظ محمد حمود في كتابه "الحداثة في الشعر العربي المعاصر" ظاهرة التوحد بالأرض عند درويش، يقول: إن اتحاد الأشياء هو سر شعره فقصيدة درويش حين نقول: الوطن أو المرأة أو الشعر، إنما يسطع الذهن في إشعاع الأرض والقضية والثورة، وإشعاع المرأة: الأم والحبيبة والأنثى، وإشعاع جمالية الفن الشعري، أي أننا في وقت واحد نستفز مشاعرنا للاحتفال بنكهة فلسطين ونكهة الحب ونكهة الشعر... كأنها نكهة واحدة (12).وأنا مع ما قاله عز الدين ومحمد حمودة لأن الشاعر هو الأرض ، والإنسان هو الوطن ، ولا بد من كون انتفاضة الأرض متزامنة ومتداخلة مع انتفاضة الإنسان .

وإذا تتبعنا صور اندماج الشاعر بالأرض وامتزاجه بمكوناتها وظواهرها واتحاده مع ترابها ونباتها وحجارتها وسجونها، فإننا سنجدها كثيرة كثيفة تجسد فكرة الشاعر الراسخة القائمة على استحالة احتلال الأرض والإنسان أو إفنانهما ومحوهما من الوجود كما يطمع ويخطط المحتل.

فالشاعر هو الأرض أو الإنسان هو الوطن، التراب كما يقول "امتداد" لروحه "وضلوعه" هي الشجر

و"يمتد آذار" فيه، و "تنتشر الأرض" فيه و "تسكنه" وهو "زهرة المشمش" وهو "السهل الرحب" و "العاشق الأبدي" و "السجين البديهي" وهو "الأرض"، وأخيراً يقول مختصراً الصورة كلها "أنا الأرض في جسد".

فالشاعر إنسان الأرض المحتلة "يتناسخ" روحاً وجسداً في الأرض، وتتناسخ "الأرض مادة ومعنى فيه، إنهما لا ينفصلان وإذا أراد المحتل أن يعبر الأرض "ويمر" فوقها فإن عليه أن يعبر فوق جسده و "يمر" فوقه ويحرثه ليبلغ الأرض ويحتلها، ولكن هذا العدو لا يستطيع و "لن يمروا" لأن هذه الأرض/ هذه الأجساد قد انتشرت وانتقضت ودبت فيها الحياة ووقفت أمام زحف الغازي وبنادقه ورصاصه وأعلنت عرسها وثورتها وانبعاثها ومقاومتها لكي لا "يمر المحتل فوق الأرض/ الجسد "لن تمروا" يكررها ثلاثاً في خاتمة القصيدة.

ومظاهر توحد الشاعر الإنسان بالأرض/ الوطن واضحة في بعدين مترابطين ملتحمين، بمظهر البعد الأول من خلال امتزاج دم الشهيدات الصغيرات بالتراب، ويظهر البعد الثاني من خلال انتفاضة الأرض/ برها وبحرها وسمائها (13).

❖ **التراب:**

ولو رجعنا إلى الجدول السابق لوجدنا مترادفات الأرض بمعنى التراب وردت بنسب متفاوتة:

ففي المقطع رقم (١) وردت مرة واحدة.

ففي المقطع رقم (1) وردت مرة واحدة.

ففي المقطع رقم (٤) وردت أربع مرات.

ففي المقطع رقم (٦،6) وردت ثلاث مرات.

فمن بين المقاطع نجد في المقطع رقم (٦) ورد مترادف الأرض بمعنى التراب أربع مرات.

وفي هذا النص

أسمي التراب امتداداً لروحي

أسمي يدي رصيف الجروح

أسمي الحصى أجنحة

اسمي العصافير لوزاً وتين

أسمي ضلوعي شجر

وأستل من تينة الصدر غصناً

وأقذفه كالحجر

وأنسف دبابة الفاتحين

نلاحظ تركيز الشاعر على التراب بمعنى الروح والتي تحوّل فيها التراب إلى امتداد روحي، وهي مرحلة جديدة ومتقدمة من مفهوم التراب في شعر محمود درويش والمتمثلة في قصيدة الأرض.

كذلك نجد محمود درويش يذكر صورة جديدة للتراب حيث قال:

"وفي شهر آذار يمشي الترابُ دماً طازجاً في الظهيرة، خمس بنات يخبئن حقلاً من القمح تحت الضفيرة، يقرأن مطلع أنشودة عن دوالي الخليل، ويكتبن خمس رسائل: تحيا بلادي... من الصفر حتى الجليل. (14)

فالتراب تحول هنا إلى إنسان، أعاد الإنسان إلى سيرته الأولى اختصر الزمن، لم ينتظر حتى يموت الإنسان لكي يعود إلى التراب، الذي جاء إلى الإنسان لكي يتحد معه ويصبح دماً طازجاً يمشي في الظهيرة بحثاً عن مهدره.

وهذا المعنى هنا إنسان يمشي، يفعل، فالمشي دليل الفعل ودليل الحياة، والمشي هنا دليل البحث عن مفقود، ودليل وجود هدف للوصول، ودليل الصحة والعافية.

واستعمال التراب بهذا المعنى دليل على خلود الإنسان العربي في فلسطين، فالإنسان يطارد، يسجن والتراب لا يطارد ولا يسجن.

ومشي التراب دماً طازجاً في الظهيرة، يعني في عز الضوء أو عزم النهار وهو معنى جديد من معاني التحدي في النضال العربي في فلسطين.

ومن الجدول السابق لاحظنا تكرار الوطن في المقطع رقم (٥) أربع مرات.

فهذا التكرار يعمق أهمية حب الوطن في نفس الشاعر لأن (الوطن) (فلسطين) كلمة تسكن قلب كل أديب فلسطيني، على حد قول غسان كنفاني " ولكن لا بد لأدباء فلسطين أن ينسجوا من حياة شعبهم ومأساة وطنهم نتاجاً أدبياً على أساس أن قضية الوطن هي الهاجس الأول(15).

وتحتل معاناة الشاعر ومعاناة الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال أو في الشتات مساحات واسعة في قصيدة الأرض.

وسوف نسترشد ببعض النصوص لبيان ذلك ففي قول محمود درويش.

سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل
سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل
سنطردهم من هواء الجليل

وهذا نجده في مواجهة التلاحم بين نون المتكلم وهاء الغائبين في جمل تكاد تكون متماثلة من حيث التركيب اللغوي، مع تنوع طفيف ، كما تتماثل في تكرار صيغة الفعل، وزمنه ،ومضمونه. بالإضافة إلى القافية الموحدة.

فالشاعر مؤمن دائماً بأن حقه لن يضيع هدرا وأن وطنه المحتل لا بد أن يعود إليه ويتحرر مهما طال الزمن، هذا موقف لا خلاف عليه برأي درويش، أما "طرد" المحتل فإنه حتمي من كل ذرات الوطن من "هوائه" و "زهوره" وحجارته.

وأسأل من تينة الصدر غصناً
واقذفه كالحجر
وأنسف دبابة الفاتحين
وفي شهر آذار، قبل ثلاثين عاماً وخمس حروب
ولدت على كومة من حشيش القبور المضيء
أبي كان في قبضة الإنجليز، وأمي تربي جديلتها
وامتدادي على العشب (16)

وترد أهمية الأرض أو القضية في الإشارة إلى الحروب الكثيرة السابقة التي اندلعت بين العرب واليهود، وهي إشارات يقصد منها أن " القضية " الوطنية حية باستمرار، وأن الحرب تعني من جهة أن الأرض لا تترك لمحتل وستظل محاولات استعادتها وتحريرها قائمة حتى يُطرد الغازي، والحرب من جهة أخرى هي أسلوب العدو للاحتفاظ بالأرض وتخويف أهلها ليأسوا ويهاجروا، فالإشارة إلى الحروب الخمس، ودور الإنجليز الذي شجع المحتل هو إثارة للقضية وإحياء للموقف.

بلادي البعيدة عني كقلبي
بلادي القريبة مني... كسجني
كأن الهياكل تستفسر الآن عن أنبياء فلسطين في بدئها
أنا ولد الكلمات البسيطة
وشهيد الخريطة
أعيدوا إلى يدي
أعيدوا إلي الهوية

نلاحظ تأثر الشاعر الكبير فهو يصف بلاده بالبعد مكاناً لكنها تسكن أعماقه وقلبه، فهذا يدل على معاناة الشاعر من التشرد والضياع والاغتراب، ودليل ذلك أنه يرى وطنه في "الخريطة " فقط، ولا يستطيع الاقتراب منها أو العيش فوق ترابها.

ويحلمن بالقدس بعد امتحان الربيع وطرد الغزاة
رأيت فتاة على شاطئ البحر قبل ثلاثين عاماً
.. فيا وطن الأنبياء ... تكامل

.. ويا وطن الزارعين ... تكامل

.. ويا وطن الشهداء .. تكامل

.. ويا وطن الضائعين .. تكامل

فهذا الوطن الملح في حضوره ، كما يظهر في صيغة المنادى المتكررة ، الممزق في الواقع بين القداسة والشهادة والضياع ، يبدو عصيّا نافرا لا يستجيب للانفجاريات الصوتية المتتالية في فعل الأمر تكامل .

لكن الوطن هو حلم أصحابه، من تشرد منهم ومن استشهد ومن يقف صامداً فوق ترابه، إنه حلمهم جميعاً المنتظر، وسيعود لهم بعد طرد الغزاة، فالشاعر ينتظر "الفتاة" حبيبته/ وطنه التي ودعها من ثلاثين عاماً حين احتل اليهود أرضه عام (1948)، إنه ينتظرها وستأتيه وسيأتيها وسيعود إليها وتعود إليه بعد أن يتكامل الوطن وتتحد كل فئاته، مزارعين وشهداء ومشردين وحاملي رسائل الأنبياء، يتحدون جميعاً ويقاومون المحتل.

.. وقد فتشوا سجنه

فلم يجدوا غيرهم في القيود

أيها العابرون على الأرض في صحوها

لن تمروا

أنا الأرض .. يا أيها العابرون على الأرض في صحوها

لن تمروا

لن تمروا

لن تمروا!(17)

لقد دخل التكرار في سياق النص الشعري فأكسبه طاقات إيحائية إضافة إلى طاقات اللغة الشعرية ، وهو مصدر من المصادر الدالة على جرح المواقف الانتقالية لدى الشاعر ، وهو ذو أبعاد دلالية كبيرة لم يأت بها اعتباطاً ، وإنما ليكثف المعاني ويؤكدها ويجعلها تتفاعل مع تكرار التراكيب والشعر.

فالعدو مهما طال ظلمه وقمعه وسجنه، فإنه في آخر الأمر سيجد نفسه في السجن نفسه وفي القيد نفسه، وفي المنفى نفسه، ولن يعمر في هذه الأرض "ولن يمر" فوق ترابها وجسدها ولن يستقر فيها، إنه لا بد خاسر، فأهل الحق/ الوطن يطالبون به دائماً، وحق كهذا لا يموت أو يفنى.

من هذا كله نخلص إلى أن:

قضية الوطن في القصيدة قضية محورية، تتواصل معها كل القضايا الأخرى، وإثارة هذه القضية بانتفاضة الشعب في يوم الأرض لإحياء المشكلة أمام الدنيا لكي لا تنسى وتصبح تاريخاً محفوظاً في الأدراج، وإنما هي قضية حية متفجرة، وستظل كذلك حتى تتحرر الأرض ويعود الحق إلى أهله، وترجع فلسطين حرة أبية بإذن الله.

ثانياً: الألفاظ الدالة على الأمكنة (المدن، والظواهر الطبيعية).

المقاطع	الألفاظ الدالة على الأمكنة
(١)	مدرسة، الطريق، الجليل
(1)	–
(٢)	البحر، سجن، قرية، النهر، أنهارها
(2)	سجني
(٣)	القدس، القمم اللولبية، حيفا، البحر
(3)	الجليل، الخريطة
(٤)	الخليل، الجليل، القدس، مدرسة
(4)	الخريطة
(٥)	قرية، التلال، أريحا، شعاب الجبال، شاطئ، البحر، عكا ت = 2
(5)	التلال، قرية، سجنه
(٦،6)	الجليل، يافا، جبل النار، سجني، صخرة القدس

بناءً على الجدول السابق نريد أن نوضح أهمية الأماكن من المدن والمشاهد الطبيعية فهذا الجدول الذي يبين ورود الألفاظ الدالة على المكان في مقاطع القصيدة.

الجليل	وردت في المقطع رقم (١) مرة واحدة وردت في المقطع رقم (3) مرة واحدة وردت في المقطع رقم (٤) مرة واحدة وردت في المقطع رقم (٦،6) مرة واحدة
القدس	ورد ذكر لفظها في المقطع رقم (٣) مرة واحدة ورد ذكر لفظها في المقطع رقم (٤) مرة واحدة
حيفا	ورد ذكرها في المقطع رقم (٣) مرة واحدة
يافا	وردت في المقطع رقم (٦،6) مرة واحدة
الخليل	وردت في المقطع رقم (٤) مرة واحدة
عكا	وردت في المقطع رقم (٥) مكررة مرتين ت = ٢
جبل النار (نابلس)	وردت في المقطع رقم (٦،6) مرة واحدة
البحر	وردت لفظة البحر في المقطع رقم (٢) مرة واحدة وردت في المقطع رقم (٣) مرة واحدة وردت في المقطع رقم (٥) مرة واحدة
النهر	وردت لفظة النهر في المقطع رقم (٢) ثم تكررت بصيغة الجمع
القمم اللولبية:	ورد لفظها في المقطع رقم (٣) مرة واحدة

الساحل:	ورد لفظه في المقطع رقم (٣) مرة واحدة
الخريطة:	ورد لفظها في المقطع رقم (٣) مرة واحدة
شعاب الجبال:	ورد لفظها في المقطع رقم (٥) مرة واحدة
التلال:	ورد لفظها في المقطع رقم (٥) مرة واحدة
المدرسة:	وردت في المقطع رقم (١) مرة واحدة
وفي المقطع رقم (٤) تكررت مرتين	

يتبين من هذا الجدول كم كان تركيز الشاعر على الأماكن التي هي من أجزاء وطنه "فالقدس والخليل والجليل وعكا وحيفا" هي الوطن وتمثل وحدة واحدة، وتتكرر الإشارة إلى معظم هذه المدن أكثر من مرة في القصيدة.

وقد لاحظنا أن منطقة الجليل تكرر لفظها في أربعة مقاطع، وهذه النسبة لم نجدها في أي مدينة أو منطقة أخرى من وطننا؛ لذا سنتناول هذه المنطقة العظيمة ونظهر دلالاتها ورموزها في عالم القصيدة.

❖ **الجليل:**

فالجليل المكان والجبل والهواء والتراب والأرض، فهي تعتبر تجسيداً للوطن كله بصوره المختلفة هذا من جهة، ومن جهة أخرى تجسد الولادة من جديد، الانبعاث والخصب بعد امتزاجها بدماء الشهداء، فإذا نظرنا إلى قول الشاعر:

خديجة! لا تغلقي الباب
لا تدخلي في الغياب
سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل
سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل
سنطردهم من هواء الجليل

نلاحظ أن الجليل هنا رمز للوطن كله، الوطن المحتل الذي تسرب إليه الغازي وسلب ترابه وهواءه، وأقام في جباله وسهوله ووديانه، ولكن هذا المكان وهذا "الجليل" بعد استشهاد الفتيات الخمس وبعد دفع ثمن الكفاح والتحرير دما ومقاومة وانتفاضة، سيتطهر من الغزاة وسيطرد المحتل من فوق ترابه وسيسحبه سحباً من هوائه وفضائه ليعود هواء الجليل نقياً نظيفاً إلى أهله وأصحابه بعد أن لوثه الغزاة باحتلالهم وسفكوا دماء سكانه برصاصهم وامتزج الدم بالتراب وظهر بوادر الخصب والاحتجاج والثورة ؛ ولأن الاحتلال لن يدوم، والقمع لن يدوم، والحق لن يموت، فإن رحيل المحتل عن الأرض حتمي، وطرده من كل جزء فيها منتظر مؤكد، لننظر إلى نص آخر في قول الشاعر:

أنا الأمل السهل والرحب– قالت لي الأرض والعشب
مثل التحية في الفجر
هذا احتمال الذهاب إلى العمر خلف خديجة، فينعس عند خديجة
يريد الغزال الجليلي أن يهدم سجني، فيحرس ظل
خديجة وهي تميل على نارها
يا خديجة إني رأيت ... وصدقت رؤياي

فهواء الجليل وغزلانه إشارة إلى أرض الوطن المحتل كله، الوطن بجغرافيته وبموجوداته الطبيعية من إنسان وحيوان ونبات وجماد، فمفردات "السهل" و"الأرض" و"العشب" و"الفجر" و"الزرع" و"الهواء" و"الغزال"، الواردة في المقطع السابق إشارات موحية ورامزة ذات دلالات عميقة مكثفة تتعلق بملامح هذا الوطن بموجوداته ومكوناته المادية والمعنوية،

الحسية والروحية، البشرية وغير البشرية التي هي جزء من إنسان هذا الوطن وجزء من ترابه لا يفرط به أهله ولا ينفصلون عنه مادة أو روحاً، إنساناً أو جماداً، سهلاً أو جبلاً.

فالجليل أرضاً (السهل والعشب والهواء) وحيواناً (الغزال) وبشراً (خديجة) هو الوطن وحدة واحدة، هو الإنسان في كل واحد. وللجليل مكانة دينية ترتبط بالسيد المسيح وذلك في مدينة الناصرة .

❖ **القدس:**

أما النموذج الثاني للمكان أو المدينة في قصيدة الأرض فهو القدس، إذ تذكر القدس في القصيدة عدة مرات، وترد مرتين مسبوقة بكلمة الحلم في المقطعين (3،4) وعدا عن تكرار ورودها في القصيدة ، فكذلك لا ننسى المكانة الدينية التي تتمتع بها، فالقدس تجسد الوطن والأرض، غير أن دلالات القدس تتسع وتطرح رؤى متنوعة للأرض والقضية والإنسان حيث يقول الشاعر:

وهذا نشيدي

وهذا صعود الفتى العربي إلى الحلم والقدس

وفي شهر آذار تستيقظ الخيل

سيدتي الأرض

فالقدس لها مكانة خاصة دينياً وتاريخياً وسياسياً لدى العرب والمسلمين وغيرهما، والقدس هي أرض الأنبياء: كأن الهياكل تستفسر الآن عن أنبياء فلسطين في بدئها المتواصل.

هذا اخضرار المدى واحمرار الحجارة

هذا نشيدي

وهذا خروج المسيح من الجرح والريح..

وهذا صعود الفتى العربي إلى القدس

فالقدس / الوطن: هي أرض الأنبياء وخروج المسيح (عليه السلام) ومسرى النبي (صلى الله عليه وسلم) في أرض الشهداء وهي أرض مباركة خصبة متجددة، تنبعث منها الحياة "والصلاة" و"الشجر" و"الخيل" وكلها رموز الولادة من جديد والخصب والبقاء،مهما عصفت بها العواصف وحلت بها النكبات.

فالنبي (صلى الله عليه وسلم) جاء القدس ليلاً" هذا صعود الفتى العربي إلى الحلم والقدس، وفي هذا إشارة إلى حادثة الإسراء فانفتحت أبوابها إلى أتباعه فيما بعد، وتخضبت دماء الشهداء بتراب القدس في مرحلة الانتفاضة والثورة ليتحقق الحلم.

وتظل القدس حلماً منتظراً للشاعر وشعبه، حلم التحرير والصعود إلى القدس.

وقد فرضت مفردة الحلم نفسها على عالم الشاعر الداخلي لطول احتلال الأرض وتوالي النكبات حتى غدا التحرير واسترجاع الأرض حلماً عزيزاً، يبتعد عن ذاكرة الشاعر يوماً بعد يوم، ولكنه يتشبث به ويؤمن بتحققه في زمن قادم، وبسبب هذا الوضع النفسي والواقعي في أعمال الشاعر سبقت مفردة " الحلم " الإشارة إلى مدينة القدس في هذين المثالين.

وهذا صعود الفتى العربي إلى الحلم والقدس

ويحلمن بالقدس بعد امتحان الربيع وطرد الغزاة

وترد القدس مرة ثالثة في المقطع الأخير من القصيدة وتضيف بعداً جديداً يتعلق بموقف الشاعر من قضية الوطن كاملة، ومن حتمية النصر وعودة الحق إلى أهله يقول:

أيها الذاهبون إلى صخرة القدس
مروا على جسدي
أيها العابرون على جسدي
لن تمروا
أنا الأرض في جسد
لن تمروا
أنا الأرض في صحوها
لن تمروا

وإنهاء القصيدة على هذا النحو الحاسم الواضح كأنما هو إنهاء للمعركة الشرسة مع المحتل، فالشاعر يعلن موقفه وهو موقف شعبه كله، ويبلغ العدو المحتل بآخر الطريق ونهاية المواجهة ونتيجة المعركة، قاطعاً بالأمر حاسماً هذا الصراع معلناً أن المحتل لن يمر فوق هذه الأرض ولن يقيم فيها بأمان وسلام أبداً.

وخلاصة القول إن القدس، صخرة ومكاناً ووطناً وإنساناً، عصية على الإفناء والمحو، هي حلم أهلها المنقوش في ذاكرة الصغير والكبير والقريب والبعيد والسجين والمشرد، ولن يموت هذا الحلم ولن يزول هذا النقش ولن ينام المحتل فوق ترابها آمناً هانئاً أبداً، فللأرض صحوتها وللحق قداسته وعودته، وللإنسان يقظته وللشهيد فرحته، وللنصر موعده، مثلما للمحتل اندحاره وللظلام انقشاعه، وليس أدل على ذلك من قول درويش:

أنا الأرض يا أيها العابرون على الأرض في صحوها
لن تمروا
لن تمروا
لن تمروا(18)

ختمت القصيدة بهذا التكرار الذي يعني الاصرار على أن العدو لن يحقق أطماعه وشروره.

ثالثاً: الألفاظ الدالة على الأزمنة.

هذا جدول يبين إحصائية للألفاظ الدالة على الأزمنة في قصيدة الأرض:

المقاطع	الألفاظ الدالة على الأزمنة في قصيدة الأرض
(١)	شهر آذار ت =٤، سنة الانتفاضة
(1)	شهر آذار، ت= ٦
(٢)	ثلاثين عاماً، خمس حروب
(2)	–
(٣)	شهر آذار ت =٥
(3)	ما مضى
(٤)	شهر آذار =٤، سنة الانتفاضة
(4)	–
رقم (٥)	ثلاثين عاماً، شهر آذار = ٢

رقم (5)	خمس حروب، ثلاثين عاماً، شهر آذار
رقم (٦،6)	شهر آذار، الشتاء

لقد ورد في القصيدة أزمنة متنوعة افتتح بها درويش قصيدته وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على الأهمية الكبيرة والدور الرئيس الفاعل الذي يقول به الزمان في عالم القصيدة.

ولو نظرنا إلى القصيدة نجد درويش افتتح قصيدته بشهر آذار، فأتوقع أن لهذا أهمية كبيرة، ومما يزيد هذه الأهمية نجده يتكرر في القصيدة ثلاثاً وعشرين مرة، وكأنما هو الأساس فيها.

في شهر آذار، في سنة الانتفاضة، قالت لنا الأرض
أسرارها الدموية، في شهر آذار مرت أمام
البنفسج والبندقية خمس بنات، وقفن على باب
مدرسة ابتدائية، واشتغلن مع الورد والزعتر
البدلي، أفسحن نشيد التراب، دخلن العناق
النهائي – آذار يأتي إلى الأرض من باطن الأرض
يأتي، ومن رقصة الفتيات البنفسج مال قليلاً

وزمن "آذار" في القصيدة ينطوي على بعدين رئيسين، أحدهما: آذار الذي وقعت به أحداث "يوم الأرض" ثم مناسبة وطنية تحي ذكراه كل عام، والآخر: آذار الذي يعني الربيع وخصوبة الأرض الذي يأتي كل سنة، كأحد الفصول الأربعة.

ويوظف درويش " آذار" في قصيدته لتجسيد كلا البعدين: الواقعي والأسطوري، فهما يتداخلان ويتحدان ليشيرا إلى أن " آذار" المجزرة هو " آذار" الانتفاضة وهو في الوقت ذاته " آذار" الخصب والنماء واستعادة الحياة:

وفي شهر آذار قالت لنا الأرض أسرارها
وفي شهر آذار نمتد في الأرض
وفي شهر آذار تنتشر الأرض فينا
وفي شهر آذار زوجت الأرض أشجارها

فآذار في هذه الأبيات هو آذار الدموي وآذار الثورة وآذار عرس الأرض المشتعلة المنقضة، وهو في الوقت ذاته آذار " أدونيس وتموز " وكل رموز الخصب والبعث والحياة بعد الموت الأسطورية.

فآذار في القصيدة يفتح رموزه ودلالاته لتشير وتمتد إلى آذار الرمز جامعاً بين الواقع والأسطورة، ويرى عز الدين إسماعيل أن مثل هذه الرموز التي تضرب بجذورها في التاريخ، فإنها لا بد أن تكون مرتبطة بالحاضر، وبالتجربة الحالية ، ليأخذ فيها الزمن دوره وبعده في تشكيل أزمنة القصيدة المختلفة (19).

فآذار هو"الموت" وهو"الحياة" هو"الشهادة" و"الخصوبة" و"البعث" و"الزواج" و"النشيد" و"الانتفاضة " و"الحب" و"الزرع" و"الأرض" و"الهواء"، هو الصورة المكثفة المختزلة لقضية الأرض والوطن والإنسان، لقضية الوطن المحتل والشاعر المنفي، لقضية الحياة بعد طول قحط وموت.

ويقترن آذار

قبل ثلاثين عاماً مع خمس حروب ومع ولادة الشاعر التي تمثل ولادة أي طفل فلسطيني فيقول درويش:

وفي شهر آذار، قبل ثلاثين عاماً وخمس حروب
ولدت على كومة من حشيش القبور المضيء
أبي كان في قبضة الانجليز – وأمي تربي جديلتها
وامتدادي على العشب...
مر الرصاص على قمري الليلكي فلم ينكسر
غير أن الزمان يمر على قمري الليلكي فيسقط في القلب سهواً
وفي شهر آذار نمتد في الأرض
وفي شهر آذار تنتشر الأرض فينا...

إن آذار الذي يولد معه في كل عام يسجل هنا ميلاد طفل فلسطيني اسمه (محمود درويش) وهو يمثل جيل كامل ولد في فلسطين قبل ثلاثين عاماً وخمس حروب.

وهذه الأزمنة متعلقة بتاريخ الصراع الطويل بين محتلي الأرض والمدافعين عنها، ففي الأعوام الثلاثين نشبت خمس حروب وهي حرب (1948، 1956، 1967، 1973، 1976)، وهذه الأخيرة تزعم أن درويش يراها حرباً شعبية داخل الأراضي المحتلة، وإن اختلفت في مظهرها وأبعادها عن حروب الأرض السابقة، التي كانت بين العرب وإسرائيل، أو أنه أرادها كذلك.

إن الزمن الذي يمتد "ثلاثين عاماً" ويشعل خمس حروب يخفي وراءه نصراً حتمياً بإذن الله يخبئ في طياته خصوبة وانبعاثاً يقول:

أعود ثلاثين عاماً
وخمس حروب
وأشهد أن الزمان
يخبئ لي سنبلة

هذا الزمن رمز لمراحل الإخصاب والنمو، فالأرض في سنوات المعاناة والمقاومة تحتضن النبتة والشعبية، وهذا رمز الثورة، حتى إذا ما آن الأوان وأطلع الربيع "آذار"، ظهرت "السنبلة" المخبأة فوق الأرض التي ينتظرها الشاعر.

"من هنا يكون الأدب قد لعب دوره في حركات استقلال الشعوب وبرز كمحرك لإرادتها" (20).

المبحث الثاني

العلاقات الدلالية:

تقوم نظرية العلاقات الدلالية على فهم المعنى المعجمي للكلمة، من خلال ما يربطها من علاقات بكلمات أخرى داخل المجال الدلالي، أو الحقل المعجمي، لذلك فمن الضروري تحديد أنواع العلاقات الضرورية لتحليل مفردات لغة معينة (21).

والعلاقات الرئيسة الهامة في هذا المجال ثلاث: الترادف، والمشترك اللفظي، والتضاد.

أولاً: الترادف:

الترادف لغة: التتابع، واصطلاحاً: الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد، أو هو استخدام أكثر من كلمة للدلالة على معنى واحد، أو تعدد الكلمات والمعنى واحد (22) وأطلق عليه العرب تكافؤ، أو ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه (23).

وقد لفتت هذه الظاهرة نظر اللغويين العرب القدامى فذكرها ابن جنّي تحت عنوان "تعاون الأمثلة وتلاقي المعاني"، ومثل لها بالخليقة والسجية والطبيعة والغريزة والسليقة(24).

فهناك من أيدّ فكرة الترادف، بل وألف فيها كتباً، ومنهم: أبو زيد الأنصاري والأصمعي، وابن خلدون، وابن الأعرابي.

وقد أنكر علماء عرب وأجانب منهم: أبو علي الفارسي، وابن فارس: وأرسطو، ونولدكه، وبالمر، حتى إن الألماني نولدكه يعلل تضخم المعاجم العربية بسبب احتوائها ما يسمى بالترادف (25).

وإذا تتبعنا قصيدة الأرض وجدنا الترادف كما يأتي:

ترادف بين الأرض والتراب

ترادف بين الأرض والبلاد

ترادف بين الأرض والوطن

ترادف بين السجن والحبس

ترادف بين ذاهبون وعابرون

ترادف بين أقذف وأنسف

ترادف بين احتلال واستعمار

ترادف بين عشب وحشيش

ترادف بين الأرض ووطن الأنبياء

ترادف بين الأرض ووطن المزارعين

ترادف بين الأرض ووطن الشهداء

ترادف بين الأرض ووطن الضائعين

ترادف بين الجليل: الوطن

يوم الأرض: يوم اليقظة والصحوة والثورة

القدس : أرض الشهداء

الخيل : الفرس

يعد هذا الحقل من الحقول الدلالية التي لها وقع في ترسيخ معاني الألفاظ ، فظاهرة الترادف هنا لها دور جلي في تأكيد وتوضيح المعاني التي يريدها الشاعر أن تبقى في ذهن المتبقي ، فاستعمل الشاعر مثلا: التراب ، والبلاد ، والوطن كلمات مرادفة لكلمة الأرض ،فاستعمالها دليل على خلود النضال العربي في فلسطين ، فالإنسان يفنى لكن التراب لا يفنى ، والإنسان يطارد ويسجن والتراب لا يطارد ولا يسجن .

ثانياً: المشترك اللفظي:

هو أن تكون اللفظة محتملة معنيين أو أكثر، أو أن تكون للكلمة الواحدة عدة معان تطلق على كل منها على سبيل الحقيقة أو المجاز، كلفظة العين تطلق على العين الباصرة، وعين الماء وعين الشيء أي حقيقة الشيء ونفسه، والعين تطلق على الجاسوس(26).

وقد تعرض للظاهرة اللغويون القدامى: كالأصمعي في كتابه ما اتفق لفظه واختلف معناه وأبو عبيد في كتابه الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى.

أما عند علماء اللغة المحدثون فهناك مصطلحات تدل على ظاهرة الاشتراك اللفظي:

1. **المشترك اللفظي:** وهو كلمة أو أكثر تتطابقان في النطق ولكنهما تختلفان في المعنى المعجمي.
2. **تعدد المعنى:** يستعمل للدلالة على أي كلمة أو جملة لها دلالتان أو أكثر[27].

من أسبابه:

انتقال الألفاظ من معانيها الحقيقية أو الأصلية إلى معنى مجازي بحيث تكتسب الكلمة معنى جديداً عن طريق الاستعارة أو المجاز كإطلاق لفظ الهلال على هلال السماء، هلال العيد، هلال النعل، هلال الإصبع، وعلى الحية إذا سلخ جلدها(28).

التغير الدلالي: يؤدي الاستعمال المجازي أحياناً إلى تغير دلالة اللفظ وانتقالها من مجال إلى مجال، مثل: كلمة الشريعة التي كانت تعني حاجزاً يمنع الدواب عن البئر ثم تطورت دلالتها في الإسلام، وأصبحت تعني ما شرعه الله تعالى لعباده من أحكام في كتابه وعلى لسان نبيه –صلى الله عليه وسلم–.

ولدى استقراء قصيدة الأرض نلاحظ أن المشترك اللفظي في:

خديجة: اسم طفلة من طالبات المدرسة وهي الشهيدة

اسم زوجة الرسول –صلى الله عليه وسلم–

الوطن: القتيل الشهيد

الأجيال التي تذبح على مر السنين

العاشق: الحب العاطفي أو الوداد

عشق الأرض والتمسك بها

الخريطة: خريطة العالم

أرض فلسطين

المطر: الماء الذي ينزل من السماء

الرصاص

سنة: عام

انطلاقة الانتفاضة

آذار: مناسبة وطنية تحيا ذكراها كل عام

الثورة والانطلاقة

الربيع وخصوبة الأرض

البعث والحياة بعد الموت

عند اليونانيين آلهة الخصوبة

عرس: الفرح

أعراس احتفالية

أعراس دموية ومهر العرس دم الشهيد

بهجة الأرض وفرحتها عند تحريرها

الربيع: فصل من فصول السنة

البعث والخصب والحياة

الأرض

الإنسان

حرب: قتال الأعداء

حرب أهلية

حرب شعبية داخل الأراضي المحتلة

السنبلة: من سنابل القمح

الثورة

الخيل: الفرس

القوة والمجد والخير

المشي: الفعل

الحياة

البحث عن مفقود

وجود هدف للوصول

الصحة والعافية

عنوان البحث عن حقيقة

وعندما يستخدم الشاعر المشترك اللفظي بين الكلمات مثل الربيع ، الحرب ويأتي بالكلمات ذات اللفظ المشترك فإنه يوسع العلاقات الدلالية بين الحقيقة والمجاز وهو بذلك يمنح الكلمات قوة تعبيرية نابعة منها

ثالثاً: التضاد أو التخالف:

هو دلالة اللفظ على معنيين متنافرين أو متضادين (29)، أو أن يطلق اللفظ على المعنى وضده وهو قريب من المشترك اللفظي في الدلالة على المعنيين لكنه يشترط التضاد في المعنيين (30).

وتقسم هذه الظاهرة إلى عدة أقسام منها:

التضاد الحاد: وهذه تقسم في عالم الكلام بحسم دون الاعتراف بدرجات أقل أو أكثر من: ميت:حي.

التضاد المتدرج: وهذا النوع من التضاد إذا قيل في لندن عنه في القاهرة عنه في الكويت.

العكس: وهو علاقة بين أزواج من الكلمات مثل: باع – اشترى، زوج – زوجة.

التضاد الاتجاهي: ومثاله العلاقة بين الكلمات مثل أعلى – أسفل، يصل – يغادر.

وقد تفاعل معه العلماء العرب بين مؤيد ومعارض، ومن أشهر المنكرين ابن درستويه صاحب "أبطال الإضداد" لكن الخليل وسيبويه وأبا عبيدة الأنصاري وابن فارس والسيوطي والمبرد والثعالبي يذهبون على كثرة وروده(31).

ومن أسبابه:

- **اختلاف اللهجات:** أن يستعمل اللفظ لدى قبيلة بمعنى، ويستعمل لدى قبيلة أخرى بمعنى مضاد، مثل الألفت في كلام قي، الأحمق، وفي كلام تميم الأعسر، والسليط عند عامة العرب، الزيت، وعند أهل اليمن السمسم.
- **الاقتراض من اللغات الأخرى:** "اقتراض اللغة العربية بعض الألفاظ من اللغات المشتركة معها في الأسرة الواحدة"، فكلمة (بسل) من الأضداد، وتعني في العربية (الحرام والحلال) وفي العبرية تعني الحرام لا غير، فقد يكون أصلها في العربية الحلال، ثم اقترضت العربية معنى الحرام من العبرية فصارت من الأضداد العربية .
- **الأسباب النفسية والاجتماعية:** منها التفاؤل والتشاؤم وكل الكلمات المشتقة، من هذا "الجزر" تؤدي معنى الفوز والفلاح والتصدي، إلا أن العرب أطلقتها على الصحراء المهلكة، وكذلك السليم للملدوغ والصحيح.
- **التهكم:** فإذا أراد المرء أن يتهكم على من يحمل صفة سيئة فإنه لن يجد إلا أن يصفه بعكس هذه الصفة التي هي ضدها، فإذا أريد التهكم على الأحمق قيل له: يا عاقل وإذا تصدى الإمام الجاهل للفتوى قيل له: قل يا إمام الأئمة(32).

وإذا نظرنا إلى قصيدة الأرض نجد تضادًا في كلمتين مثل:

شهيق: زفيري

ابتعدت: اقتربت

تجيء: تروح

يزرعوني: يحصدوني

وراء: أمام

البعيدة: القريبة

الطليعي: النهائي

الحياة: الموت

ربيع: خريف

تحرير: احتلال

الصبا: الكهولة

الحضور: الغياب

الحق: الباطل

تغلقي: تدخلي

ينام: يستيقظ

أسير: أعود

غامضة: واضحة

صباح: مساء

حيث تكمن أهمية التضاد في الكلمات في شعر محمود درويش بكونه يقوم مقام الموحد للجم داخل قانون الجدل الدائم الذي يتحكم بمسار القصيدة ، فيما هو يؤلف بين عناصرها ويمكنها من التفاعل المستمر.
فالألفاظ لا تتضح إلا بإيراد الضد فتقوى الصورة ويزداد المعنى قوة .

النتائج:

بعد هذه الوقفة مع الشاعر محمود درويش ، توصل البحث إلى بعض الاستنتاجات منها:

- تجسدت في القصيدة علاقة الشاعر بالأرض ، فالأرض هي التي تملك القدرة على الولادة وإعطاء صفة الحياة ، وذلك من الدلالة التي يفرزها الفعل المتكرر " أسمي التراب امتدادا لروحي"" ولدت على كومة من حشيش القبور المضيء " "نمتد في الأرض " " تنتشر الأرض فينا"
- وحد الشاعر بينه وبين الأرض الأم في علاقة حب صوفي من خلال كونه وطنا يناضل الشاعر في سبيله ،دون أن يفقد أمل الحلم بالانتصار ، بالرغم من المجازر التي ترتكب بحق هذه الأرض وأبنائها.
- احتل الرمز الشعري مكانة مرموقة في قصيدة الأرض فقد رأينا أنه يحيل إلى التاريخ ويستقي منه رموزه ويعطيها نفساً وروحاً جديدة، فكان لرمزه أثر فعال في بناء قصيدته.
- يمتلك الشاعر اللغة التي تتطور بتطور الزمن الذي يمر به، فلم تعد اللغة عنده انتقائية بل تعبيريه، يوظفها كيفما يشاء مستفيداً من سعة اللغة واحتوائها على مترادفات ومتضادات كثيرة.
- تميز محمود درويش بعمق الإحساس وشدة الوعي بالتجربة التي أثبت قدرته على الوصول بشعره إلى مختلف طبقات المجتمع على الرغم من تميزه الفني.
- أثر الشاعر في النفس الفلسطينية، حيث جعل انتماءه يتفشى إلى نفوس الجماهير، إذا فهو شاعر عظيم لا يكتفي بالتعبير عن أزمات الواقع، بل يسعى إلى حلها.
- دخل التكرار في سياق القصيدة فأكسبها طاقات إيحائية إضافة إلى طاقات اللغة الشعرية وهو ذو أبعاد دلالية كبيرة ، جاء ليكثف المعاني ويؤكدها ويجعلها تتفاعل ، فقد أدى معاني مختلفة على مستوى تكرار الكلمات والضمائر والعبارات كتركيز الاهتمام والعناية على قضية أو أمر معين يريده درويش.
- عبرت صيغة الترادف والتضاد عن دلالات خاصة مرتبطة بسياق القصيدة ، فجاءت للدلالة على الظلم والحرمان والحزن الذي يختلج في نفس الشاعر .
- شكلت الأسماء في قصيدة الأرض مادة دلالية ثرية ، خاصة أسماء المدن والأشخاص .

وفي الختام أتمنى أن أكون قد حققت الفائدة من هذا البحث.

وما توفيقي إلا بالله

الهوامـــش:

1. النابلسي، شاكر، مجنون التراب دراسة في شعر وفكر محمود درويش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1987، ص 176
2. الجيوسي، سلمى الخضراء، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997، ص 224
3. دحبور، أحمد، مقال محمود درويش في الستين–الشاعر والشأن العظيم، الحياة الجديدة، ع9/س7،235/ .
4. محمد، شهاب، شعراء فلسطينيون قراءة في الديوان الشعر الفلسطيني المعاصر، دار العودة، بيروت، ص 12.
5. النقاش، رجاء، أدباء معاصرون، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968، ص 236
6. نفسه والصفحة نفسها .
7. اعتدال، عثمان نحو قراءة نقدية لأرض محمود درويش، مجلة فصول، ع1،م5،196/، (1984)، ص196.
8. نفسه والصفحة نفسها.
9. الزعبي، أحمد، الشاعر الغاضب محمود درويش، دائرة المكتبات والوثائق الوطنية، ط1، 1983، ص130
10. مختار، عمر أحمد، علم الدلالة، مكتبة الأنجلو المصرية، مكتبة دار العروبة، (د،ط)، (د،ت)،ص80
11. إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، ط3، 1981، ص83
12. حمود، محمد العيد، الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1981،ص222.
13. الزعبي، أحمد، الشاعر الغاضب محمود درويش، دائرة المكتبات والوثائق الوطنية، ط1، 1983، ص174
14. اعتدال، عثمان نحو قراءة نقدية لأرض محمود درويش، مجلة فصول، ع1،م5،196/، (1984)، ص198
15. إبراهيم، داوود، غسان كنفاني مناضلاً ومفكراً، حياته، فكره، وأدبه، ونضاله، واستشهاده، وكالة أبو عرفة للصحافة والنشر، القدس، (د،ط)، (د،ت)،ص14
16. درويش، محمود، الديوان (م1.م2)، دار العودة، بيروت، ط4، 1994، ص638/1
17. نفسه ، 653/1
18. نفسه ، والصفحة نفسها .
19. الزعبي، أحمد، الشاعر الغاضب محمود درويش، دائرة المكتبات والوثائق الوطنية، ط1، 1983، ص138
20. مندور، محمد، في الأدب والنقد، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة،ص43
21. مجاهد، عبد الكريم، الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء، عمان، (د،ط)، 1985،ص92
22. مختار، عمر أحمد، علم الدلالة، مكتبة الأنجلو المصرية، مكتبة دار العروبة، (د،ط)، (د،ت)،ص98
23. إبراهيم، زهير، الخصائص الدلالية للخطابة السياسية في القرن الثاني الهجري، مكتبة محمد الثقافية. 2004، ص62

24. الزيدي، كاصد، فقه اللغة العربية، الموصل، 1987،ص168
25. مجاهد، عبد الكريم، الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء، عمان، (د،ط)، 1985،ص94
26. نفسه ، ص112
27. إبراهيم، زهير، الخصائص الدلالية للخطابة السياسية في القرن الثاني الهجري، مكتبة محمد الثقافية. 2004، ص64
28. أنيس، إبراهيم: دلالة الألفاظ، مكتبة الانجلو المصرية، 1976،ص224
29. حماد أحمد، عبد الرحمن، عوامل التطور اللغوي، دار الأندلس ،بيروت،ط1983،1،ص77
30. جبل، عبد الكريم محمد، في علم الدلالة، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1997،ص122
31. مجاهد، عبد الكريم، الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء، عمان، (د،ط)، 1985،ص122
32. محمد سعد ،محمد ، في علم الدلالة ،مكتبة زهراء الشرق ، مصر ، ط1 ، 2002 ، ص164
33. بدوي، عبده، وجهة نظر في الشعر الفلسطيني المعاصر، الشعر فن العربية الأول، ع27، دار مجلة الإذاعة والتلفزيون، (1981)،ص70

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم، داوود، **غسان كنفاني مناضلاً ومفكراً، حياته، فكره، وأدبه، ونضاله، واستشهاده**، وكالة أبو عرفة للصحافة والنشر، القدس، (د،ط)، (د،ت)،ص14
2. إبراهيم، زهير، **الخصائص الدلالية للخطابة السياسية في القرن الثاني الهجري**، مكتبة محمد الثقافية. 2004، ص62
3. إسماعيل، عز الدين، **الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية**، دار العودة، بيروت، ط3، 1981، ص83
4. أنيس، إبراهيم: **دلالة الألفاظ**، مكتبة الانجلو المصرية، 1976،ص224
5. جبل، عبد الكريم محمد، **في علم الدلالة**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1997،ص122
6. الجيوسي، سلمى الخضراء، **موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997، ص 224
7. حماد أحمد، عبد الرحمن، **عوامل التطور اللغوي**، دار الأندلس ،بيروت،ط1983،1،ص77
8. حمود، محمد العيد، **الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها**، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1981،ص222.
9. درويش، محمود، **الديوان (م1.م2)**، دار العودة، بيروت، ط4، 1994، ص639/1.
10. الزعبي، أحمد، **الشاعر الغاضب محمود درويش**، دائرة المكتبات والوثائق الوطنية، ط1، 1983، ص130
11. الزيدي، كاصد، **فقه اللغة العربية**، الموصل، 1987،ص168
12. مجاهد، عبد الكريم، **الدلالة اللغوية عند العرب**، دار الضياء، عمان، (د،ط)، 1985،ص122
13. محمد سعد ، محمد ، **في علم الدلالة** ،مكتبة زهراء الشرق ، مصر ، ط1 ، 2002 ، ص164

14. محمد، شهاب، **شعراء فلسطينيون قراءة في الديوان الشعر الفلسطيني المعاصر**، دار العودة، بيروت، ص 12.
15. مختار، عمر أحمد، **علم الدلالة**، مكتبة الأنجلو المصرية، مكتبة دار العروبة، (د،ط)، (د،ت)،ص98
16. مندور، محمد، **في الأدب والنقد**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة،ص43
17. النابلسي، شاكر، **مجنون التراب دراسة في شعر وفكر محمود درويش**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1987، ص 176
18. النقاش، رجاء، **أدباء معاصرون**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968، ص 236

الدوريات :

1. اعتدال، عثمان **نحو قراءة نقدية لأرض محمود درويش**، مجلة فصول، ع1،م/196،5، (1984)، ص196.
2. بدوي، عبده، **وجهة نظر في الشعر الفلسطيني المعاصر**، الشعر فن العربية الأول، ع27، دار مجلة الإذاعة والتلفزيون، (1981)،ص70
3. دحبور، أحمد، **مقال محمود درويش في الستين–الشاعر والشأن العظيم**، الحياة الجديدة، ع9/س/235،7 .